208851 ـ يتقرب إلى الله في حال الشدة أكثر منه في حال الرخاء ، ويتخوف ألا يتقبل الله منه .

السؤال

عند التقرب إلى الله في الشدائد أكثر من الأيام العادية : أشعر بأن الله لن يتقبل عملي هذا ، لأن تقربي لله يكون في هذه الحالة بغرض تفريج الكرب ، لا لغرض العبادة ؟

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

أولا :

الواجب على المسلم أن يحسن الظن بالله ، ويتهم نفسه بالتقصير ، فيكون بذلك بين الخوف والرجاء : الخوف من أن يرد عليه عمله ويؤاخذه الله بذنبه ، والرجاء في رحمة الله وعافيته وقبوله .

ثانيا :

إذا عمل العبد العمل وأراد به حسنة الدنيا والآخرة ، فلا حرج عليه في ذلك .

وقد تقدم في جواب السؤال رقم : (84018) بيان أن الإنسان إذا أراد بعمله حسنى الدنيا ، وحسنى الآخرة فلا شيء عليه .

قال القرافي رحمه الله :

" وَأَمَّا مُطْلَقُ التَّشْرِيكِ ، كَمَنْ جَاهَدَ لِيُحَصِّلَ طَاعَةَ اللَّهِ بِالْجِهَادِ ، وَلِيُحَصِّلَ الْمَالَ مِنْ الْغَنِيمَةِ : فَهَذَا لَا يَضُرُّهُ وَلَا يُحَرَّمُ عَلَيْهِ بِالْإِجْمَاعِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ لَهُ هَذَا فِي هَذِهِ الْعِبَادَةِ .

وَكَذَلِكَ مَنْ صَامَ لِيَصِحَّ جَسَدُهُ ، أَوْ لِيَحْصُلَ لَهُ زَوَالُ مَرَضٍ مِنْ الْأَمْرَاضِ الَّتِي يُنَافِيهَا الصِّيَامُ ، وَيَكُونُ التَّدَاوِي هُوَ مَقْصُودَهُ ، أَوْ بَعْضَ مَقْصُودِهِ ، وَالصَّوْمُ مَقْصُودُهُ مَعَ ذَلِكَ ، وَأَوْقَعَ الصَّوْمَ مَعَ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ : لَا تَقْدَحُ هَذِهِ الْمَقَاصِدُ فِي صَوْمِهِ ، بَلْ أَمَرَ بِهَا صَاحِبُ الشَّرْعِ فِي قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ) ؛ أَيْ : قَاطِعٌ .

وَمِنْ ذَلِكَ أَنْ يُجَدِّدَ وُضُوءَهُ ، وَيَنْوِيَ التَّبَرُّدَ أَوْ التَّنْظِيفَ ، وَجَمِيعُ هَذِهِ الْأَغْرَاضِ لَا يَدْخُلُ فِيهَا تَعْظِيمُ الْخَلْقِ ، بَلْ هِيَ تَشْرِيك أُمُورٍ مِنْ الْمَصَالِحِ ، لَيْسَ لَهَا إدْرَاكٌ ، وَلَا تَصْلُحُ لِلْإِدْرَاكِ وَلَا لِلتَّعْظِيمِ ؛ فَلَا تَقْدَحُ فِي الْعِبَادَاتِ .

نَعَمْ ؛ لَا يَمْنَعُ أَنَّ هَذِهِ الْأَغْرَاضَ الْمُخَالِطَةَ لِلْعِبَادَةِ قَدْ تنقصُ الْأَجْرَ ، وَأَنَّ الْعِبَادَةَ إذَا تَجَرَّدَتْ عَنْهَا : زَادَ الْأَجْرُ وَعَظُمَ الثَّوَابُ ؛ أَمَّا الْإِثْمُ وَالْبُطْلَانُ : فَلَا سَبِيلَ إلَيْهِ ، وَمِنْ جِهَتِهِ حَصَلَ الْفَرْقُ ، لَا مِنْ جِهَةِ كَثْرَةِ الثَّوَابِ وَقِلَّتِهِ " انتهى باختصار من "الفروق" (4 / 429-430)

فإذا بالغ العبد في شيء من القربات ، أو اجتهد في أمر من العبادات ، أو الدعاء والتضرع إلى الله تعالى ، وهو ينظر في ذلك كله إلى تفريج كربته ، وكشف ضره ، وإعطائه حاجته وسؤله : لم يقدح ذلك في عبادته ودعائه وتضرعه ، ولم يحرمه أجر هذه العبادات .

إنما المذموم أن يعمل العمل الصالح يريد به الدنيا ، ولا تخطر الآخرة له على بال ، فهذا لا يصح عمله ولا يقبل منه ؛ لما روى الإمام أحمد (20715) عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ وَالرِّفْعَةِ وَالدِّينِ وَالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الْآخِرَةِ : لِلدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ) صححه الألباني في "صحيح الجامع" (2825) فإذا عمل العمل بغرض تفريج الكرب لا غير ، دون أن تكون له نية في طاعة الله وثوابه وابتغاء مرضاته : فهذا هو المذموم ، أما مجرد التشريك فلا يضره ، على ما سبق بيانه .

ومما ينبغي أن يعلم : أن التقرب إلى الله تعالى في حال الشدة أكثر من حال الرخاء ليس بمذموم مطلقا ؛ بل إن الله تعالى مدح نفسه بأنه ـ وحده ـ الذي يجيب دعوة المضطر ؛ ومعلوم أن حال المضطر لا تكون ملازمة له دائما ، وأن دعوته ـ حال اضطراره ـ ليست هي دعوته في حال السعة والرخاء ؛ قال الله تعالى : (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ) النمل/62 .

وذم الله قوما من القاسية قلوبهم ، ما عرفوا ربهم في ضراء ولا سراء ، ولا ذكرهم البأس والبلاء بالافتقار إلى رب الأرض والسماء ؛ قال تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) الأنعام/ 42- 43

أي: أخذناهم بالفقر والمرض والآفات، والمصائب، رحمة منا بهم ، لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ إلينا، ويلجأون عند الشدة إلينا.

"تفسير السعدي" (ص 256)

إنما المذموم أن يتقرب إلى الله في الشدة وينساه في الرخاء ، وهو حال الكافر المعاند ؛ ولذلك قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالكَرْبِ فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ) رواه الترمذي (3382) وحسنه الألباني في "صحيح الترمذي" .

وقد قِيلَ: مِنْ شِيمَةِ الْمُؤْمِنِ الشَّاكِرِ الْحَازِمِ أَنْ يَرِيشَ لِلسَّهْمِ قَبْلَ الرَّمْيِ، وَيَلْتَجِئَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى قَبْلَ مَسِّ الِاضْطِرَارِ، بِخِلَافِ الْكَافِرِ الْغَبِيِّ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ) الزمر/ 8 .. " انتهى من مرقاة المفاتيح" (4/ 1531)

وأكمل الأحوال أن يتقرب العبد إلى ربه في حال الشدة تقربه إليه في حال الرخاء ، فلا يتغير بتغير الأحوال . قال ابن رجب رحمه الله :

" مَنْ عَامَلَ اللَّهَ بِالتَّقْوَى وَالطَّاعَةِ فِي حَالِ رَخَائِهِ، عَامَلَهُ اللَّهُ بِاللُّطْفِ وَالْإِعَانَةِ فِي حَالِ شِدَّتِهِ " انتهى من "جامع العلوم والحكم" (1/ 474)

والواجب على العبد أن يجاهد نفسه في تصحيح نيته في عمله كله ، وطلب الآخرة بعملها ، والدنيا بأعمالها ، وأن يفتقر إلى ربه في قبول طاعته ، وتضرعه ودعائه ، مع حسن الظن بالرب الرحمن الرحيم ، الجواد الكريم ، الشكور الحليم .

روى البخاري (7405) ومسلم (2675) ، واللفظ له ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ اللهَ يَقُولُ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي) .

راجع للفائدة جواب السؤال رقم : (113177) ، (120175)

والله تعالى أعلم .